الفصل الثالث

المبادئ الأساسية للأخلاق في الإسلام

☐ إله واحدٌ

☐ محمد رسول اللّه

☐ الوجود جميل

☐ الحياة قيّمة

☐ الإنسانية واحدة

المبدأ الأول: إله واحد

الإيمان باللّه:

إن الإيمان باللّه هو المنطلق الرئيسي الذي انطلقت منه أخلاق الإسلام وسائر الأديان الكتابية، فالله تعالى - هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو المعبود الذي لا إله غيره، الجدير حقاً بالعبادة، بوصفه الخالق المنعم، الرحمن الرحيم. بإسمه نبدأ في أقوالنا وتلاوتنا وأفعالنا وفي حركاتنا وسكوننا، لا شريك له ولا شبيه به، غني عن المشاركة والمشاكلة. {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**} [الشورى: 11].

إن هذه الآية مع ما فيها من بساطة تحمل في طياتها اتجاهاً فكرياً لا أبدع منه في عظمته ولا أدق في تحرير العقل من الأساطير والخرافات، وتحول دون أمرين هما في منتهى الخطورة:

(1) إغراق الفكر والخيال في عالم الخوارق والغيبيات.

(2) كما يحول دون استغلال البسطاء وعامة الناس.

وقد استخلص علماء التوحيد من هذه الآية القاعدة الكلية: «كل ما خطر ببالك فاللّه بخلاف ذلك». وللمسلم أن يشكر اللّه تعالى إذْ

أراحه وأراح ذهنه من عناء لا نهاية له ولا طائل يطوله حَوْل ماهية الله والأساطير والمشعوذات المتعلقة به.

الحق أن الكلام عن الله تعالى في الأمور الغيبية بكتاب الله قليل الورود بل نادر، والمرجَّح أن ما جاء فيه يهدف إلى بيان سريع وحازم وأن ما يعرفه الإنسان في حياته عن الله ليس إلا جزءاً يسيراً من حقائق كبرى مثل: الخلق والخالق والمخلوقات، وأن هناك أموراً كثيرة لا حصر لها وتتجاوز الخيال والعقل البشريين والنهاية... والروح... والمصير... والعدم والوجود... الخ وكلها أمور في غاية الأهمية والدقة يذوب الإنسان أمامها وعبثاً يشتغل فيها العقل المحدود، وإذا قام ليبحث، فلن يكون أكثر من قطرة ماء أمام بحار محيطة رهيبة لا حدَّ لها ولا ساحل ولا مركب، وهكذا قطع القرآن الطريق أمام الغيبيات الأسطورية وأساليب الشعوذة والدجل، التي عاشت وعاثت طويلاً في الوثنيات واندست إلى الأديان السماوية الكتابية. قطع القرآن هذا الطريق المتعرج الأسود المفعم بالخطورة والمنزلقات إذ أتانا «بإعلانٍ منير» مثل نور الشمس في وضح النهار فيقول جلَّ من قائل: {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ**} [الحج: 8]. وهكذا أصبحت القاعدة إن ما كان من بحثٍ أو نقاشٍ يتم بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير مرفوض وليس إلا من قبيل الجدل الكلامي الأجوف الذي لا يقام له وزن أو اعتبار في عالم الحق وجوهر الصدق.

حدُّ العلم: فهو في القرآن واضح بيّن، أنبأتنا به الآية التي تقول: {**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً**} [الإسراء: 36].

وبغير ذلك فلن يكون عملك إلا تخميناً وضرباً من الخيال أو الخبال... أو الجدل الكلامي[1].

---

(1) لكي ندرك فكرة الله: يجب:

1- أن نكون علماء بالمخلوقات (دقة ومنفعة ومستوياتٍ وجمالاً وترابطاً).

هذا هو حد العلم أما **الهدى:** فقد ورد في مواضع كثيرة من كتاب الله لعل أظهرها وأكثرها وروداً وتلاوة بلسان المسلم ولهفة قلبه ما جاء في فاتحة الكتاب يقرؤها المؤمن عشرات المرات في النهار {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**} يقرؤها ولا يملّ قلبه من هذه الحلاوة الروحية في طلب الهداية.

إن الهدى هنا مطلب حار يتوجه فيه المسلمون بقلوبهم المُحبة والخاشعة التي تطلب النور وترجو الحق بعد أن تُقدم لربها العظيم.

- الحمد لله (بوصفه) سبحانه.
- رب العالمين. (وهو).
- الرحمن الرحيم (وهو).
- مالك يوم الدين.

وفجأةً يتغير التوجُه فيخاطب المسلم ربه بلا واسطة أو وسيط فيقول {**إِيَّاكَ**} وما أجملها من كلمة وما أشد وقعها {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**} أنت معبودنا، حبيبنا ومبتغانا وربنا وإلهنا.

والهداية لا تكون مجرد رغبة {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**} من الرغبات أو سؤال مسألة من المسائل، بل هي سرُّ فاتحة الكتاب، فليس من طلبٍ في الفاتحة إلا صيغة طلب للهداية وموضوعها واضح وعظيم وهو الصراط المستقيم.

إنه موضوع دقيق وذو أهمية قصوى وشروط الطلب التي سبقته واضحة هي (حمدٌ) و(ثناء) و(تمجيد) و(إعلان عبادة) (واستعانة) وردت في أفصح بيان وأقصره.

2- إن نهتدي بعلمنا الذي حصّلناه (بدلاً من أن نتشتت ونتوقف أو نتراجع أو نضل أو نغتر..).

3- وإن نفيد مما أتانا من الله (الكتاب السماوي: توارة أو إنجيلاً - ضاعت نصوصهما لتقادم العهد - أو قرآناً) عربياً غير ذي عوج لا يتبدل ولا يتغير.

هذه صورة للهدى كمطلب. وهناك صورة أخرى للهدى «كمخبر» يخبرنا فيه خالقنا المُنعِم فيقول: {**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ**} [الأنعام: 125].

{**وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**} [الأنعام: 125].

وهذه أيضاً صورة نفسية عميقة: تملأ الصدر والقلب بالهدى والنور بعيداً عن الضلال والزيغ والعبث.

الكتاب المنير:

واضح أنه الفرقان أو القرآن ومِن قَبْلِهِ ما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، وقد بقي بالحفظ من هذه الكتب السماوية كتاب الإسلام، الذي تعهد الله تعالى بحفظه[1]، وما يزال كما أنزل من عند الله سالماً من أي تغيير أو تحريف. وأما الكتب السابقة للقرآن، فقد أتى عليها البلى واجتمع عليها التحريف وبُعد الشقة والزمان وعبث العابثين[2].

وفي التحدث عن الإيمان وهداية الله كلام جادٌ وأثير لا حدَّ له في القرآن، ونعتذر لأننا اجتزأنا من هذا البحر المحيط ناحيتين فقط **أولاهما** إن القرآن حين يورد صفات الله تعالى يمنحنا صوراً عقلية هي في منتهى الرأفة والرحمة والتقريب والرقة في معظم آيات السور، فيوقظ عقولنا بلطف وعواطفنا برقة ويكون عوناً لنا، آخذاً بأيدينا بالحسنى وجميل العبارات[3]. وخلافاً لذلك نقرأ في التوراة

---

(1) {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} [الحجر: 9].

(2) لقد تحدى القرآن أهل الكتب هذه فقال: {**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**} [آل عمران: 93]. وقال: {**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ**} [المائدة: 68].

(3) وما ينبغي أن نعرفه ونعلمه هو أن هداية الله الأقوام السابقة للإسلام كانت تنزل بالمعاني ويُترك للنبي أو الرسول أن يشرح ويوضح لقومه مقاصد الوحي، وذلك خلافاً للقرآن الذي نزل إلى الرسول محمد r فقد جاء من عند الله بكلمات

التي نعهدها الآن تهديداً للبشر ووعيداً وطلباً غير مترفق بالطاعة، وذلك لمجرد أن الذي يكلمهم هو الرب، وأنهم (أي البشر) عبيد صغار الشأن.

«لأني أنا الرب إلهكم، كونوا قدّيسين ـ ليحترم كل منكم أباه وأمه وليحفهما، أنا الرب إلهكم، إذا سرتم حسب أوامري، إذا حافظتم على ما أطلب منكم...» هذا ما نقرؤه في نصوص التوراة التي بين أيدي البشر الآن.

والناحية **الثانية:** إن الله تعالى ـ وهو الكبير المتعال ـ يلزم نفسه بالرحمة. قال تعالى: إنه: {**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**} [الأنعام: 12] وقال: {**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**} [هود: 25]. ثم ما أعظم ما يرفع العلماء إلى منزلة قد لا يطلبونها ولا يتصورونها ولا تخطر على بال أحدهم يرفعهم كي يشهدوا مع الله والملائكة «أنه إلهٌ قائم بالعدل والإنصاف والقسط» {**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ**} [آل عمران: 18]. فما أجلها من منزلة أعلنها وأعدها الله للعلماء وأولي العلم.

حقاً إن الكلام عن الإله في كل قوم، وفي كل حضارة يعطيك أوضح صورة وأجلاها عن القوم أو الحضارة ونصيبهما من الفهم وإدراكهما والحقَّ والقيم والفهم.

لهذا ولكي نتوصل إلى صميم حضارة من الحضارات، أو أمة من الأمم فلنبدأ ولنبحث في نظرية الإله فيها. فهذه النظرية تعبر عن الروح العليا التي تسودها[1] كما تعبر عن أصالتها وخصوصيتها.

وشيء آخر يحققه الإيمان بالله في **موضوع الأخلاق**، فيسمو بها وينير سبلها ويحبب الناس بها، إن المؤمن الذي يقرأ القرآن ويتلو آياته يعرف «أن الله رحمن رحيم وأنه رؤوف بالعباد وأنه غفور ودود وأنه تعالى على صراط مستقيم، كتب على نفسه الرحمة»

الله بالذات وحروفه وحركاته وسكناته وألفاظه ومواقفه كلها بل وتجويد قراءته وأصول تلاوته كلها من الله.

(1) Hackin and others: Asiatic Mythology, P. 29.

ويدرك أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين له ما في السموات والأرض وأن ما فيهما مسخّر للإنسان وأنه يعطي ويُنعم بلا حدود وأنه تعالى واحد أحد يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويمحو الباطل ويحق الحق بكلماته ويزيد في فضله وأنه يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء.

وفي **موضوع الحياة** قد **تشتد المعوقات** في العالم فيجأر الإنسان إلى الله.

وقد تدلهم الظلمات ويشتد البلاء، ويفتقر المرء ويضيق عليه رزقه، ويفجؤه المرض والضعف، ويشعر أنه وحيد أو أنه أحيط به، ويتعرض للهلاك، وتقوى حاجة الإنسان إلى السنّد والعون **فيحلو الدعاء** وتتعاظم اللهفة ويحلو التضرع إلى الخالق «ربنا كن معنا ولا تكن علينا، وأعطنا ولا تحرمنا، ورضنا وارض عنا، وآتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا»، ويتأكد المؤمن أنه ليس وحيداً، وإن بعد عنه الأهل أو اجتلاهم الموت. **فالله تعالى** مع الصابرين، ومع المتقين والراكعين، وأنه مع الأبرار الملحين في الطلب والساعين إلى الخير، وأنه تعالى مع المحسنين وأولي الأبصار وأولي الألباب.

والله تعالى هو الملجأ والمنجى. **يحب** المحسنين والتوابين والمتطهرين والمتقين والمتوكلين والمقسطين وهو **لا يحب** الفساد ولا المفسدين، ولا يحب الجهر بالسوء من القول، ولا يحب المسرفين ولا المعتدين ولا الخائنين ولا يحب المفسدين في الأرض ولا كل مختال فخور.

يقرأ المؤمن **في كتاب الله** ويتمعّن فيه ويهتدي بأضوائه ويتعلق به وتتفتح آماله وأعماله فيضاعف من جهوده ويبدأ دوماً من جديد، ويدنو من الشفاء والقوة والصحة والعافية، وحب الناس وتقدير الحياة، ويعتز بكل ذلك وهو يقرأ {**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**} [البقرة: 152-153].

% % %

المبدأ الثاني: محمد رسول اللّه

قد لا يحتاج الباحث المنصف ـ مسلماً كان أو غير مسلم ـ إلى السؤال عن أخلاق النبي محمد r. فلقد اشتهر في قومه منذ أول عهده بالحياة في طفولته وشبابه وفي كهولته، قبل البعثة وبعدها لدى المشركين والمسلمين على السواء، فيُجمع كلّهم على أنه **الأمين الصادق** الذي لم يكذب ولم يُعرف بكذبةٍ واحدة، وأنه المثال في تطابق سره وعلنه، وأقواله وأفعاله وفي الشفقة والإحسان وبسط يد المساعدة للصغير والكبير، والمسلم والفاجر بل حتى الكفار... كان r النموذج للإنسانية في إنسانيته، والنموذج في الأخلاقية بأخلاقه.

وكان السؤال الذي وجهه لدى تلقيه الوحي إلى مشركي مكة، حين أتاهم يبدؤهم بالدعوة إلى اللّه، كان سؤاله لهم: يشير إشارة واضحة وهو واثق من أخلاقه وصدق قالته ونقاء سيرته وسريرته بينهم فقال يحدثهم: هل إذا قلتُ لكم إنني رأيتُ خارج مكة راحلة فيها كذا بعير وكذا ناقة، هل أنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم... قال إني رسول اللّه إليكم...

المهم أنهم كانوا يحترمونه ويجلونه في كل ما يقول ويفعل، وهو يعلم ذلك، في كل ما يقول ويفعل لأنه (صلوات اللّه عليه) لا يقول إلا الحق والصدق ولا يفعل إلا الجميل الأجود الكريم المحمود على الدوام.

ونحن إذا استعرضنا لِماماً وبسرعة ما تعلمناه من أقواله وجدنا الكثير مما يرفع الرأس بالاعتزاز ويشعُّ في النفس الوثوق بقوة القضية التي يحملها. ونجتزئ من بعض أقواله على سبيل المثال قوله:

ـ إن أعظم الأعمال بعد الإيمان التودد إلى الناس.

ـ خيركم من يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

ـ لن تدخلوا الجنة حتى تنالوا البر، ولن تنالوا البر حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم.

ـ إذا قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلةٌ (أي غرسة أو شتلة نبات) فليغرسها.

كان الصدق والنقاء وعلو الهمة، وشرف المنبت والمحتد و... أشياء عالية كثيرة قد اجتمعت كلها في شخصه (نفسه وقوله).. ولعمري **كأن الأخلاق أحبت أن تسير على الأرض بين الناس فتمثلت في شخص النبي محمد □.**

إن الكلام في أخلاق النبي وعظيم مشاعره وسمو تعاليمه وفي حرصه وحَدَبه على الناس (كباراً وصغاراً ومسنين) بل حتى على الحيوانات، كلام أصبح معروفاً وشائعاً فلا نرى ـ في هذه العجالة ـ حاجةً إلى مزيد من الشرح وتكفينا شهادةُ المولى الحق جاءت على لسان الحق في الكتاب الحق: {**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**} [القلم: 4]. ولقد أصبح كل ذلك معروفاً يمكن مطالعته والرجوع إليه في كتب السيرة والتاريخ.

معجزة الرسول:

وتأييداً لأخلاق النبي ثمة معجزات للأنبياء تحسم النقاش وتبهر الأبصار فماذا كانت معجزة النبي محمد r؟

كانت المعجزة الكبرى له القرآن العظيم، لقد تحدى القرآنُ العرب أن يأتوا بعشر سور مثله، بل بشبيه مماثل من السور بل ببضع آيات.

أما النبي فقد راحت سلطته تدخل إلى القلوب، فلا يزداد هو إلا **تواضعاً،** فيحتفظ بالبساطة في أخلاقه وتعامله **بالحسنى** حتى مع أعدائه.

فيؤكد للجميع أنه بشر[1] مثل غيره من البشر {**قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**} [الأنعام: 50]. {**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**} [الأعراف: 188].

والبشر يتغذون ويأكلون، ولكن النبي ما **يأكل إلا القليل** ويعيش على خبز الشعير.

يقول أنس جئت رسول الله r يوماً فوجدته جالساً مع أصحابه يحدثهم وقد عصب بطنه بعصابة فقلت لمن حولي: لِمَ عصب الرسول بطنه؟ قالوا من **الجوع**. (رواه مسلم).

وتقول السيدة عائشة زوج الرسول «**ما شبع آل محمد من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قُبض**» رواه البخاري.

لقد كان الأسودان التمر والماء غذاء محمد، حتى بعد أن فتح مكة وتدفقت الأموال لا تعد ولا تحصى على الرسول وصارت بين يديه فلا يمسها.

(1) {**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**} [الكهف: 110].

حيرة قريش:

حارت قريش وتحيرت في أمر محمد، كانت تعلم أنه الرسول لم يكذب ولم يعرف بكذبة قط منذ طفولته ولكن ما باله يسفّه عقولهم ويسخر من آلهتهم، ما باله يحدثهم عن إله واحد ليس كمثله شيء ويطلب منهم أن يعبدوا هذا الإله ويزكوا أموالهم و... يقوموا ببضع حركات يقول أنها صلوات ثم ما باله يأتيهم بآيات وأحاديث يقال فيها أن الناس سواسية وأن لا فرق بين عربي وعجمي إلا بشيء يسميه التقوى، ولا فرق بين أمير وسوقة.. الخ..

يقول التاريخ: «إنه بينما كان علماء قريش جلوساً يتحدثون تعرضوا لذكر رسول الله r فاعترضهم (النضر بن الحارث)، وكان أعلمهم بشؤون الدنيا فقال مسفهاً لآرائهم يا معشر قريش: أنه قد نزل بكم أمر ما أتيتم به بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون. لقد استمعتُ لما قاله محمد، فلا والله ما هو بساحر ولا هو بكاهن ولا هو بشاعر ولا هو بمجنون، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم».

لقد كان أبو جهل عم النبي وعدوه اللدود يقول: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به.

وكان r في مواجهة الآخرين: مثلاً أعلى في **الشجاعة** و**السماحة** مع **الرفق** والحزم، كان **يحب الأطفال** لم يمر على جماعة منهم دون **ابتسامة** رقيقة ونظرة حانية وكلمة لطيفة، كان يحمل عدوه على الإعجاب بما تحلى به من صدق يملأ المستمع، وصحبة ومودة و**سخاءٍ فياض**، فما خيّر بين أمرين إلا اختار **أيسرهما** وأبعدهما عن العسر إلا أن يكون فيه ما يبغض الله. كان شديد الغيرة في الحق تلك الغيرة التي تحمي الإنسان من الموت وهو حي وكثيراً ما تكون مشوبة بالحقد، وما هكذا كانت غيرة الرسول فقد كان شديد

الغيرة على الحق حيثما كانت الغيرة وسيلةً لايقاظ الصدق في الناس وبعث النقاء في الوجدان، كان **عالي الهمة** طامحاً إلى اتباع معالي الأمور، **لم ينس قط إلى آخر يوم في حياته أنه بشر** ممن خلق الله، وأنه اختاره الله ليكون **نبي العالمين وخاتم النبيين**.

ها هو رسول الله نموذج الأخلاق الرفيعة ومثالها في الإسلام.

% % %

المبدأ الثالث: الكونُ بناء جميل وأرض ذلول

كانت تسيطر على العقل الغربي وما تزال، فكرةٌ (ارسطية) عن الكون والوجود، فقد كان المعلم الأول يرى أن الوجود قديم والمادة أزلية، وتتحكم فيهما قوانين الحتمية والضرورة الآلية. فالمستقبل ليس إلا نسخة عن الماضي والحاضر، وكل شيء ينبئ الإنسان عن حتمية وجوده.

على أن الأمر الهام الجدير بالملاحظة تصور العقلية الغربية أن الكون يظل في معزلٍ عن الإنسان، فهو في جانب والإنسان في جانب آخر. بل إن أحدهما يظل خصماً للآخر ويسعى للعدوان عليه، إن قانون الصراع هو الذي يسودهما، وعلى البشر أن يكونوا مستعدين لرد العدوان الذي يأتيهم في كل لحظة، من كون غريب عنهم، لا يبالي بهم وقد يسعى ويأتي فينقضّ عليهم.

وكل هذا يخالف مخالفة تامة ما نراه ونعتقد به نحن المسلمين، فنحن نرى الأمور رؤية ثانية ونتصورها من زاوية بل من زوايا أخرى، يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- لما كان خالق الكون والإنسان واحداً نتج عن ذلك خضوع هذين الأمرين المخلوقين لمشيئةٍ واحدة.

2- وهذا يعني أن هناك نَسَباً بين الإنسان والكون وعلاقات قوية ووشيجة.

3- وأكثر من هذا فإن الأرض (وهي الجزء الهام من الكون الذي يحتضن الإنسان وتتجلى فيها حضاراته) هذه الأرض قد خُلق أو

أُنشئ الإنسان فيها ومن طينها قال تعالى: {**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**} [هود: 61].

4- وكل شيء يؤكد أن أحد الشيئين يتسق ويتفاهم مع الآخر فالإنسان بمثابة مفتاح والأرض بمثابة القفل، وما عَمَلُ العلم وتأثيره في الواقع إلا من باب تفاهم المفتاح مع الأقفال، لاستخراج مكنونات الوجود.

5- وإن الغربي حيث يكتشف واقعة في الطبيعة أو قانوناً من القوانين، تجده يشعر بزهو شديد يخامر نفسه، ويقول أنه انتصر في موضوع كذا، وحقق ظفراً في مجال كذا، كما لو كان الإنسان يعيش وسط الطبيعة وكأنه (بين حيوانات شرسة).

أما المسلم فإنه يرى أن الأرض ليست فقط موطئ قدمه ومهد حضارته، بل هي طبيعة ذلول لإرادته ومصنوعة من أجله مسخرةٌ لمنافعه، وهي موضع جبهته حين السجود ومناط ارتقائه إلى الله تعالى، وفي حين أن الماء عند الغربي هو مجرد مركب كيمياوي (وطبعاً فهذا حق ولكنه ليس كل الحق) إلا أن المسلم يرى أن الماء شرط لازم لا لتكوين الحياة وحسب بل هو وسيلة ضرورية لا بد منها من أجل الدخول في رحاب الله والصلاة بين يديه، (فالصلاة تشترط الوضوء والاغتسال من أجل الطُهر) وحين يُفقد الماء، ينتفع المؤمن بالحجارة وما إليها يتطهر بها في التيمم، والمهم هو التطهر ومن الطريف أن نلاحظ أن الجنة في القرآن تحفل على الدوام بأنهار تجري من تحتها. والأمثال الشعبية في بلادنا ترى أن مُتع الدنيا تكون في الخُضرة والماء والوجه الحسن.

6- وهكذا يعتقد المسلمون أن الأرض ـ في الأصل ـ مخلوقة هادفة، والأشياء علىالأرض، ترتبط كلها بنفع غائي والغايات النهاية للأشياء تكمن في خدمة الحياة وفي قمتها حياة البشر.

7- أما الكرامة التي أعطاها الخالقُ العظيمُ للإنسان، فترتبط بعد إرادة الله بالوجود الأرضي بره وبحره، {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى**

كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [الإسراء: 70]. فالكرامة لا تخلو من مرتكز ومرتكزها الأرض. أما الطيبات التي يُرزق منها بنو آدم فهي قطعاً تُستخرج من جهات الأرض، ناهيك عن تفضيل الله تعالى بني آدم على الكثير من المخلوقات، فهو تفضيل يقوم على توفر ميزات كثيرة لعل أهمها قدرة الإنسان على البناء والتعمير على سطح الأرض والارتقاء فوق الأرض بالعقل والإيمان.

8- ويتم تعاونٌ رائع بين خلق الله تعالى في الإنبات فوق الأرض وعمل الإنسان. قال تعالى: {**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ**} [يس: 36].

موجز القول: أن الأرض في الحياة الإسلامية مسخرة للإنسان هي أصله، وهي موضع تأملٍ عقلي، وجمالي له.

وكونها **مسخَّرة** يظهر في الآيات الآتية:

- {**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**} [الملك: 15].

- {**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ**} [الجاثية: 13].

- {**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**} [هود: 61].

- {**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**} [نوح: 17].

أما كونها **موضوع تأمل عقلي** فيظهر في الآيات الآتية:

- {**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**} [الذاريات: 20-22].

- {**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ**} [الرحمن: 33].

- {**قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**} [الملك: 24].

- {**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ**} [الجمعة: 10].

وأما كون الأرض موضوع **تأمل ذوقي وجمالي** فيظهر في آيات كثيرة:

- {**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**} [نوح: 17].
- {**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**} [ق: 7].
- {**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**} [الحج: 5].

أن الكلام عن الجبال (التي تمر مر السحاب) في كتاب الله والكلام عن الوهاد والوديان والسهول والجنان والزهور والثمار والنجوم والجبال وعن الحدائق ذات البهجة والأشجار ذات الخضرة والنضرة والماء الذي تحيا به الأرض والمطر والبحار والأنهار، والرياح التي تصرف السحب وتدفعها وتُحركها في شكل نسائم وعواصف، كل هذا يبعث في النفس الفرح والطمأنينة والبهجة ويشعر الإنسان أنه محاط بأشياء زاهية، مسخرة له ومن أجله، فهو ليس وحيداً في عالم رهيب وليس مكوناً بالصدفة العمياء، بل إن سائر ما حوله يبشره ويؤنسه ويبعث فيه الرضا والهداية والمحبة فيذكر الله ويشكره ويمجده.

يقول تعالى في سورة (ق): {**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**} [ق: 6-11].

% % %

المبدأ الرابع: الحياة قيّمة وفذة

إن من يتأمل في الآيات الكريمة التي وصفت فيها الحياة في القرآن يبدو له لأول وهلة أن الاتجاه العام حيال الحياة يقوم على تحذير المؤمنين من أن يستسلموا للغرور فيها وخداع الذات، فهي حُلوة خضرة وهي أخاذة بزينتها ماتعة في ترفها وهي تسلب بفتنتها لب اللبيب فما تَدَع فيه إلا الندامة والحسرة وهكذا يقول أحدهم يخاطب الحياة: يا دنيا أليس فيك إلا السراب؟...

وهكذا أيضاً فحين يكون الإنسان طفلاً تخدعه الحياة ويزين له الخيالُ الآمال، فيتمنى أن يكبر ويسارع بالنمو كي ينتفع ويستمتع بما ينتفع به الكبار ويستمتعون، حتى إذا دخل في سن الشباب اتسعت دوائر الأحلام عنده وازدانت بالفتن فمضى ينمي الاعتداد بالذات، وشرع ينهب الأفراح والملذات، مسترسلاً سادراً في غيّه، صريع الغواني. حتى إذا دخل في الكهولة، (وسرعان ما يُفاجأ بالشيب) اكتشف أنَّ ما كان يملأ قلبه بالأماني مفعم ومليء بكثير من الأوهام، فالأيام تكر والزمان يمضي ويتوارى من غير استئذان، والجسم يتهدم وإذا بالكهل يسعى ليقاوم الشيخوخة (إذا وصل إليها) وليحتفظ ببقايا ماء الشباب ورُوائه[1] ولكن هيهات هيهات أن يقف الزمان أو تتراجع عجلة الحياة.

وهكذا فإن شرعة الإسلام (حرصاً منها على مشاعر الإنسان لتظل متماسكة، وعلى سلوكه كي يظل وقوراً معافى)، أخبرتنا الكثير وحذرتنا مراتٍ ومراتٍ من الوقوع في مهاوي اللهو والترف ومتاع الغرور وأفادتنا ونبهتنا وأعلمتنا ثم أنبأتنا أن الحياة سريعةُ الزوال، لا يُؤمن شرها، وأنها قُلَّبٌ متحولة لا تؤمن عواقبها.

هذا هو الرأي الاجمالي وهذه هي الصورة العامة التي صوّر بها كتاب الله تعالى الحياة، ومع ذلك فإن الذي يتعمق أكثر فأكثر

---

(1) وتظهر الأمور عند المرأة أوضح وأبيّن، لأن عمر الفتنة عندها قصير (يقع بين الـ (15) والـ(45) أو بين البلوغ واليأس) وأقصر منه عندما تتعلّق بجمالها أو مالها وخلافاً له تحيا المرأة المؤمنة، فالمؤمنة من النساء، تتمتع (بشعور طيب) بوجوه الصلاح والأنس.

ويتقصّى بدقة أكبر وأوفر ما ورد في القرآن الكريم عن الحياة يكتشف أن هناك تمييزاً بين أمرين:

- الحياة في ذاتها (بوصفها حياة).
- والحياة الدنيا بمفاتنها وزخرفها.

إن الحياة في ذاتها ليست مستقبحة ولا ممقوتة في نظر القرآن[1] بل كثيراً ما تكون طيبة وحافلة بما يُرضي الله ويستنير بالنور الذي أنزله ولنمعن النظر في الآيات الكريمة الآتية:

- {**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**} [النحل: 97].
- {**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**} [الملك: 2].

ففي هذه الآية الأخيرة يستعمل مفهوم الحياة بمعنى كونها (أداة الاختبار أو الامتحان)، للكشف عن الذين يحسنون ويؤمنون ولتمييزهم عن الذين لا يحسنون، (فالحياة هنا محايدة) خلافاً للآية التي سبقتها حيث وصف القرآن الحياة بكونها «حياة طيبة».

أما قوله تعالى: {**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**} [البقرة: 179] فإن الحياة هنا أُخذت بمعنى الانقاذ، والمخاطب فيها أولو الألباب والهدف هو حصول التقوى. فأكرِم بها من حياة.

وقوله {**يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**} [الفجر: 24] فالمعنى هنا ينصب على الحياة الآخرة. (أو الحياة التي لا يعتريها موت).

وفي موضع آخر نقرأ قوله تعالى: {**وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**} [العنكبوت: 64].

(1) يراجع في هذا الكتاب: (المدخل إلى فلسفة القيم) للمؤلف.

أن الحيوان هو «الحياة الدائمة»، «والحق الذي لا زوال له ولا انقطاع»[1] فهنا ترتفع قيمة الحياة وتعلو ليستمتع الإنسان «بما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر».

وفي الكلام عن «الحياة الدنيا» تتحول الأمور عن الكلام في «مطلق الحياة». وإذا استعملنا تعبيرات المنطق قلنا أن لفظ الدنيا هو فصل نوعي والحياة جنس عام. والجنس (إذا كان قريباً) فهو يصنع مع الفصل النوعي حداً تاماً.

المهم أن الحياة الدنيا شيء يختلف عن مجرد الحياة.

لنتأمل في الآيات:

- {**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**} [آل عمران: 185].
- {**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ**} [الأنعام: 32].
- {**أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**} [التوبة: 38].
- {**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**} [آل عمران: 14].
- {**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**} [البقرة: 212].
- {**مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ**} [آل عمران: 117].
- {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**} [البقرة: 204].

وهناك آيات كثيرة مماثلة...

وهكذا نجد أن الحياة في ذاتها ليست سيئة في نظر الإسلام، وهي تغدو سيئة حين يمازجها السلوك السيء والتصور المغرور،

(1) يراجع المختصر في تفسير ابن كثير، المجلد الثالث، ص28.

أو تميل وتجنح صوب اللهو، أو تنحرف صوب اللذات المحرمة[1]، أما إذا خلت الحياة مما يعكر نقاءها فإنها يمكن أن تكون حياة طيبة، وهي في بعض الظروف محايدة حياداً أخلاقياً (إذا صح التعبير) فتكون شيئاً ممتازاً قيماً فذاً، أو تكون شيئاً مستقيماً، وذلك تبعاً للكائن الذي يحيا حياته.

إن الحياة بهذا المعنى هي أشبه بالماء الذي يتخذ لون الإناء وحجمه وشكله. وبهذا المعنى نستطيع أن نقول: «ليست القيمة للحياة وإنما للروح التي تحيا بها» فحياة العلماء علمية (أي راقية وأثيرة) وحياة المتقين (تقيه نقية)، وحياة المجرمين[2] مجرمة وهكذا...

وعلى أية حال يجب ألا نستهين بالحياة، فمنها تتكون موجودات حية، وقيم مثلى وظروف جميلة. إن الحياة في ذاتها هدية حلوة بل هي آية من آيات الله وفائق أسراره، هدية كريمة من إله كريم لا حدّ لكرمه وإبداعه وجميل صنعه.

ويمكن أن تكون شيئاً غير ذلك، شيئاً مستقبحاً حين يهبط بها إنسان قبيح الخُلُق كافر منكِر لا يشعر ولا يبالي بأنعُم الله.

% % %

المبدأ الخامس: الإنسانية واحدة

فإذا كان العلم آية باهرة، فإن البيان عن النفس آية باهرة أخرى لا تقل عنها، قال تعالى: {**الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**} [الرحمن: 1-4]، وكنا نود أن نتوسع في العلوم الروحية التي عرفت في عهود الإسلام، ومنها ما سُمي بالعلم اللدنيّ، إلا أننا

---

(1) وليست كل اللذات محرمة في الإسلام قال تعالى: {**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**} [الأعراف: 32]. وقال جلَّ من قائل: {**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**} [الأعراف: 31]، فلنذكر هنا أن الأرض جعلت كلها مسجداً وطهوراً.

(2) قال تعالى: {**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ**} [القلم: 35].

رأينا أن نكف عن ذلك خشية الاستطراد المُخِل ولئلا ندخل في ميدان التصوف بما فيه من مغيّبات وشطحات.

الإرادة: المادة لا تريد بل تخضع وتستجيب لما يراد بها، والإنسان يريد بمعنى أنه يتصرف ويختار وسائله وغاياته، الإنسان وحده يريد (بكل معنى الكلمة)، أما الحيوان فإنه يختار بالغريزة (إذا صح التعبير)، إن الحيوانات آكلات الأعشاب تلتقط بفمها الأعشاب التي تصلح لها وتدع ما يؤذيها أو يعرّض حياتها للخطر[1]، وتعرف ما يؤكل وما لا يؤكل في الساعات الأولى بعد ولادتها. وقد اصطلح علماء النفس على تسمية سلوك الحيوان بالآلية (أو الغريزة) فقالوا: «الآلية في علم النفس كل سلوك يعني التصرف بغير شعور»[2] أو بلا تمييز وإن الإنسان يريد بمعنى أنه يميّز. وقد اعتاد المدرسيون على تقسيم الإرادة إلى أربع مراحل هي:

تصور الهدف، المناقشة، العزم، التنفيذ

والحيوان يصعب أن يقال أنه يتصور الهدف ويعيه. إن الحصان يسير لوحده في الطريق من الحقل إلى البيت، وإذا تغيرت معالم الطريق، فإنه يضيع ويتيه ولا يستطيع أن يميز الاتجاه. إنه بحاجة إلى أن يتعلم السير في الطريق من جديد.

وأما **المناقشة:** فهي الموازنة بين الدوافع (العاطفية) والبواعث (العقلية) وقطعاً فإن الحيوان لا يملكها.

وأما **العزم:** أو القرار بالاختيار فإنه يتضمن قطع المناقشة وحسم المداولة باتخاذ موقف. والحيوان لا يملك ذلك.

أما **التنفيذ:** أو التحقيق فقد يكون عند الحيوان، ولكنه بغير فهم ولا اختيار، ويكون عند الإنسان مصحوباً بالفهم.

القدرة: وأبسطها القدرة على الحركة، وهي توجد عند الإنسان والحيوان، وقد دلت التجارب السيكولوجية التي أجراها كثيرون

(1) سيكولوجية الطفولة، الفصل الأول، عدنان السبيعي.
(2) سيكولوجية الطفولة، الفصل الثاني، عدنان السبيعي.

ومنهم Kellogg الذي قام بها على تربية طفله وجعله يعيش مع قرد صغير وُلد معه في وقت واحد. وقد دلت هذه التجربة على أن الحيوان يسارع إلى تكوين قدارته (في القفز واللعب وتناول الطعام والنوم) فتتزن حركاته وتصبح في وقت وجيز قريبة النضج خلافاً للطفل الإنساني الذي يتأخر تكون قدراته، ولكنه يظل مثابراً على النمو ويتأخر النضج عنده، أو ما يسمى باكتمال النمو[1]، وكلما نضج الإنسان طالت فترة طفولته ولا يعني هذا أن طفل القرد أذكى من طفل الإنسان ولكنه يعني أن ما يحتاج إليه القرد من قدرات محدودة يتعلّمها ويكتسبها مسرعاً ثم يتوقف عند حدٍ معين، ما دام متروكاً لنفسه، وقد يمكن أن يكتسب زيادة في القدرات ولكن ليس من الثابت أن يورث ما اكتسبه إلى أولاده[2].

هذا ما يتعلق بقدرةٍ بسيطة كالحركة، وأما الذكاء أو ما عُرف بأنه القدرة على تنمية القدرة، فلا مجال لمقارنة الإنسان بالحيوان فيه. [ولا مجال لأن نطيل النظر في موضوع كهذا خشية الاستطراد المخِل].

العاطفة: هي الاستجابة التأثرية التي تدور حول الملائم والمنافي، أو الملِذ والمؤلم، وأبسطها الرغبة، وأوسطها الانفعال وأعمقها الهوى. والهوى عاطفة فيها فكرة ثابتة تتميز باستعداد دائم للتهيج مع امكانيات فائقة على التأثر أو التأثير. وتتدخل في الهوى عوامل كثيرة كالتخيّل والإرادة والتذكر.. الخ. وكل هذا يتوفر عند الإنسان ولا يتوفر عند الحيوان.

2- الإنسان قادر على أن يتجاوز الطين:

لأنه كائن مكرَّم قال تعالى: {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**} [الإسراء: 70].

---

(1) المرجع السابق، بحث النمو، ص66.

(2) المرجع السابق، بحث النمو، ص68.

وقال تعالى: {**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**} [التين: 4-6].

إن تجاوز الإنسان الطين يحمل أكثر من احتمال أو إمكان.

فهو من جهة (وهي الجهة العليا) مخلوق في أحسن تقويم، وهو من جهة ثانية (وهي الدنيا) مردود إلى أسفل سافلين وما بين الدرجتين العليا والدنيا تتكون حرية الإنسان في الاختيار.

ومجال هذه الحرية واسع سعة كبيرة تتجاوز كل تحديد وهكذا فإن في وسع الإنسان أن يسمو ويسمو حتى يُفضَّل على الملائكة (وشرطه أن يكون من الذين آمنوا بحق وعملوا الصالحات بصدق)، وفي وسعه أيضاً أن يُسف ويسف حتى يغدو أدنى من الحيوان أو أحط من البهيمة. البهيمة لا تصنع الشرور أكثر مما تسمح بها طبيعتها. في حين أن الإنسان يستطيع أن يستعين (في شره) بقدراته غير المحدودة وذكائه، وقد يتمكن من تدمير بلدان لا بلد واحد. فلا غرابة إذا وصف الله تعالى المكانة التي قد ينحدر إليها بعض بني آدم بأنها تقع في أسفل سافلين.

3- وفي مناسبة الكلام عن حرية الإنسان نواجه فكرة «الأمانة» تلك التي عرضها المولى تعالى على كائنات كثيرة مثل السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، وفي تفسير الأمانة قيل إنها الفرائض، وقال آخرون هي الطاعة.

وقال قتادة: الأمانة هي الدين والفرائض والحدود. وهذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وشرطها أنه إذا قام بها أُثيب وإن تركها عُوقب. فقبلها الإنسان لضعفه وظلمه وجهله.

يقول مقاتل بن حيان[1]: إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسماوات والأرض والجبال فبدأ بالسموات فعرض

(1) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد 3، ص118.

عليهن الأمانة وهي الطاعة، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة، ولكُنَّ علي الفضل والكرامة والثواب في الجنة. فقلن: يا رب إنا لا نستطيع هذا الأمر وليس بنا قوة، ولكنا لك مطيعون. ثم عرض الأمانة على الأرضين: فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني وأعطيكن الفضل والكرامة في الدنيا. فقلن: لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق ولكنا لك سامعون مطيعون لا نعصيك في شيء أمرتنا به.

ثم قرّب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟ فقال آدم: ما لي عندك؟ قال: يا آدم: إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار، قال: رضيت يا رب.

قال الله عز وجل عند ذلك: قد حمَّلتها لك. فكان ذلك كذلك.

وقال غيره: الأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع.

وعن رسول الله r أنها كما قال: «**يصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة حتى قال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أجلده وأعرفه وأعقله.. وما في قلبه حبة خردل من إيمان**».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الّله r قال: «**أربعة إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا، حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طِعمة**[1]».

هذا وإن من المفسرين من توسع في شرح الأمانة فأبان أن الأمانة التي ائتمنها الله في الإنسان: 1- عمارة الأرض. 2- وعبادة الله. 3- وخلافته في أرضه.

الإنسانية واحدة:

(1) الطِعمة هي الجهة التي يرتزق منها.

كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. هذا هو شعار الإسلام فيما يخص عموم البشر وهذا تصوره لهم.

قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**} [الحجرات: 13].

يقول تعالى مخبراً الناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها (آدم - وحواء) فجميع الناس بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالتقوى ومكارم الأخلاق.

أما النَّسب فقد جاء ذكره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي r أنه قال: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر**». (أخرجه الترمذي).

وقد وردت أحاديث كثيرة بذلك، روى البخاري عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله r أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**» قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**» قالوا: وليس عن هذا نسألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألوني**»؟ قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**» وعنه r أنه قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r: «**كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان**» (أخرجه البزاز في مسنده). وعنه r أنه قال: «**يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها فالناس رجلان: رجل برٌ تقيٌ كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى**».

العنصرية:

تقوم على ادعاء التفوق العضوي والنفسي لشعب من الشعوب على بقية الشعوب الأخرى، إضافة إلى ادعاء النقاء العرقي والسمو الأخلاقي.

ظهرت في التاريخ عنصريات عديدة أشهرها عنصرية اليهود منذ القديم والعنصرية الجرمانية التي ظهرت مع الحربين العالميتين.

أما اليهود فيقولون نحن أبناء الله وأحباؤه خلق الأرض لنا وخلق الشعوب لتخدمنا، وقد ردّ هذه الادعاءات كتاب الله تعالى فجاء في سورة المائدة 18 قوله تعالى: {**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ**}.

أما العنصرية الجرمانية فقد حددت صفات الجنس الألماني فقالوا: إنه شعب نقي يتصف أفراده بطول القامة، وأنه عريض المنكبين ذو شعر أشقر وعينين زرقاوين وبنية تقاوم الأمراض ويتميزون بالإبداع في التفكير وينجحون في بسط سلطانهم ويتفوقون في كل شيء ويصنعون التاريخ.

لكن هذه الادعاءات لا تستقيم أمام الإحصاء يقول علماء الإحصاء:

ليس كل الألمان طويلي القامة. لنفرض أن 10% فقط ليسوا طويلي القامة يبقى 90% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين. لنفرض أن 10% من التسعين ليسوا عريضي المنكبين يبقى 80% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة ذوي شعر أشقر. لنفرض أن 10% من الثمانين ذوي شعر أشقر يبقى 70% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة ذوي شعر أشقر وذوي عينين زرقاوين. لنفرض أن 10% ليسوا زرقاوي العيون يبقى 60% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة ذوي شعر أشقر وذوي عينين زرقاوين يقاومون الأمراض. لنفرض أن 10% ليسوا يقاومون الأمراض يبقى 50% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة يتصفون بأنهم مبدعون ولنفرض أن 10% ليسوا مبدعين يبقى 40% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة يتصفون بأنهم مبدعون يبسطون سلطانهم ولنفرض أن 10% ليسوا ذوي سلطان يبقى 30% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة يتصفون بأنهم يتفوقون في كل شيء ولنفرض أن 10% ليسوا متفوقين يبقى 20% ينطبق عليهم الادعاء.

وليس كل الألمان عريضي المنكبين وطويلي القامة يتصفون بأنهم يصنعون التاريخ ولنفرض أن 10% ليسوا من صناع التاريخ يبقى 10% ينطبق عليهم الادعاء.

فما قيمة ادعاءات تنطبق كلها على 10% عشرة بالمئة من أبناء العنصر الجرماني؟

% % %